

الفصل الثاني

أطوار التربية الإسلامية

• توطئة :

لنسنا بصدد التعرض للتربية الإسلامية .. محاولة لرسم خطوط نظريتها ، ولكننا في معرض التمهيد بإشارات سريعة لتطور مفهوم التربية الإسلامية ، نجدأ بخير القرون ثم نثنى بالفترة بين القرن الرابع الى الثامن ونختهى في الفترة من القرن الثامن حتى الآن . . .

وقبل أن نشير الى هذه الفترات ، نود أن نقول انه لأول مرة في التاريخ تتواجد على الأرض نظرية تجمع بين المثل والواقع ، وتصل ضرورات الجسد بأشواق الروح ، وتربط الأرض بالسما ، وتصل الدنيا بالآخرة ، وتعلو من شأن الانسان ذلك الكائن الذي كرمه ربه على سائر الكائنات ، ورباه ربه الأكرم بأكرم أنواع التربية ..

وذلك ما سوف يتضح بعد قليل . . . بمشيئة الله .

١ - الفترة الأولى خير القرون (الأول - الثالث) :

فيها كان الوحي .. قرآنا وسنة .

وفيهما شهد الصحابة والتابعون ، وتابعو التابعين .. سيرة
رسول الله ﷺ أو سمعوا عنها من قريب ، وهى بعد غضة !
وفيهما .. كان الوحي يربى .. توجيهها وتشريعها .
وفيهما .. كان النبى ﷺ .. يربى قدوة وأسوة !
وفيهما .. كان من بعده على طريقه .. يسعى نورهم بين أيديهم
وبإيمانهم !

وشهد العالم - لأول مرة - نظرية شاملة متكاملة ، تجمع الرغب
والرهب ، والدنيا والآخرة ، والواقع والمثال ، وترعى الانسان بكل
طاقاته ومكاناته .

ولئن تمثلت فى نصوص ، فقد تبعها التطبيق ، على أروع مثل
للالتهزام والتطبيق وتبعها الاجتهاد من الصحابة ثم التابعين وتابعي
التابعين وأئمة المذاهب .

ولعل هذه الفترة هى التى سوف نقدمها بمشيئة الله عند صياغة
النظرية (الباب الثانى) .

٢ - الفترة الثانية (من القرن الرابع الى القرن الثامن) :

لئن أرسيت الفترة الأولى الأصول ..
فلقد كانت هذه فترة التفريع ... أيفعت الشجرة المباركة ثمارها
لتطبيقا ، وتفرعها فكانت مدارس تربوية متعددة :

● مدرسة المحدثين والفقهاء :

ولئن بدأت هذه المدرسة منذ القرن الثالث ، في توافق بين المدرستين الا أنه مع القرن الرابع بدأت تتهيز مدرسة المحدثين بالوقوف عند التراث ، ومدرسة الفقهاء (أو مدرسة الرأي) بالنصوص في الأدلة والتفريع عليها والنظر فيما تركه الأئمة ومن ثم اعتمد كل فريق طريقه أساسا للتربية .

● مدرسة التصوف :

تبلورت الصوفية في القرن الثالث ، وبدأت تصوغ أصولها في تهذيب النفس وتزكيتها (١) ، ولم تكن على النحو الذي يراه الناس الآن انحرافا عن سنة رسول الله ﷺ ، أو اتباعا للبدع ... واستمرت تضع المنهج لتربية المريد نظريا وعمليا ... وان غيرت بعد ذلك وبدلت .

● مدرسة الفلسفة :

وفيهما كان الاهتمام بالمنهج العقلي ، والمنطق والجدل واستخدام ذلك كله في قضايا الايمان كما استخدم في منهج التربية الاسلامية .

(١) ظهرت في القرن الرابع مدرستان للصوفية الملتزمة بالاطار : الأولى في نيسابور يقودها أبو نصر السراج (المتوفى ٣٧٨ هـ) الثانية في بغداد ويقودها نفر من الشيوخ أبرزهم جعفر بن محمد الخلدی (المتوفى ٢٤٨ هـ) .

- واتجه بعضهم الى قيام التربية على أسس ثلاثة :
- علم نفس تربوى قائم على تحليل النفس .
- وأساس اجتماعى يبلور معنى الخير والسعادة .
- وأساس فلسفى يحدد ما هو فاضل وما هو رذيل (٢) .

● مدرسة علماء الكلام :

- واتسمت هذه المدرسة فى مجال التربية بما يلى :
- التوسع فى المناظرة - وقد بقى علماء السنة بعيدا عن هذا الميدان ثم ولجوه .
- الأخذ على التحديث من الذاكرة - بمقولة أن المحدث لا يسلم من الخطأ .
- استمرار الأساليب الأخرى : كالاملاء ، والاجازة ، والاسئلة والقراءة (٢) .



٣ - الفترة الثالثة - فترة التقليد :

- وقد بدأت منذ القرن الثامن واستمرت حتى الآن .
- وهو جيل لم يسعد بابتكار الأصول ، ولا بابتكار التطبيق ،

-
- (٢) د. ماجد عريشان الكيلانى - تطور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية ص ١٢٤ .
 - (٣) المرجع السابق .

بل عاش الجمود وعاش التقليد ، وانعزل المفكرون فيه عن ظروف العصر ، ولم يعودوا يؤثرون أو يثأثرون بل انتشر التعصب المذهبي ، وندرت القيادات المستنيرة ، وكثرت الخرافات الصوفية وظهرت في هذه الأجيال آثار الانقسام المذهبي .

لكن الفترتين لم تعيما رجالا في مجال التربية :

أمثال علي بن محمد الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ) وكان أشعريا تحمس لآراء الأشعري ، واعتبر أساس العمل لبلوغ سعادة الدنيا والآخرة تربية الطفل . وأنكر التقليد ودعا للحرية .

وأمثال احمد بن علي الخطيب البغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) تأثر بأستاذه الماوردي .

وأمثال أبو حامد بن محمد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) .

وهنا أنشأ الغزالي مدرسة ربانية أخروية لكنه لم يغفل عن الأمور الدنيوية فقد قسم العلوم الى : شرعية ، وعقلية ، وطبيعية ، ومهن وصناعات ، وهو يهتم ببناء العقيدة الاسلامية ثم تزكية النفس للارتقاء بالانسان من مستوى الخضوع للأهواء والشهوات الى مقام العبودية لله - والنفس والقلب والروح أسماء متعددة لجوهر واحد هو جوهر الانسان ثم دراسة القرآن . ثم الاعداد الوظيفي (الحكمة) .

وأخيرا ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) . وقد جدد الفكر التربوي .

وابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) .

● مع بشائر فجر جديد :

وقبل أن ننتهي من مراحل تطور التربية الإسلامية نشير إلى أن النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري قد شهد صحوة إسلامية ... تجدد في الفكر ، وتجدد في الأسلوب ، وتجدد في أنوسائل ، وإن التزمت أصول السلف الصالح ... فجملت بين الأصالة والتجديد ، ورغبت إلى إيقاظ الأمة من سبات عميق ، وعمدت إلى وسائل التربية العديدة لتقديم منها والحديث فأخضعتها لمعايير الإسلام ، وخلصتها من الجمود ، كما خلصتها من الابتداع ، يقول صاحب هذه المدرسة :

« أيها الاخوان المسلمون .. أيها الناس أجمعون :

في هذا الصخب الداوي من صدى الحوادث الكثيرة الحبالى التى
تدأها الليالى :

في هذا الزمان ، وفي هذا التيار المتدفق الفياض من الدعوات
التي تهتف بها أرجاء الكون وتسرب بها أمواج الأثير في أنحاء
المعمورة ، مجهزة بكل ما يغرى ويخدع من الآمال والوعود والمظاهر .

فتتقدم بدعوتنا نحن ...

هائلة .. ولكنها أقوى من الزواجع العاصفة

متواضعة .. ولكنها أعز من الشم الرواسى ...

محدودة •• ولكنها أوسع من حدود هذه الأقطار الأرضية جميعا ••
خالية من المظاهر الزائفة والهرج الكاذب ، ولكنها محفونة بجلال
الحق وروعة الوحي ، ورعاية الله مجردة من المطامع والأهواء والغايات
الشخصية والمنافع الفردية ، ولكنها تورث المؤمنين بها من الصادقين
في العمل لها السيادة في الدنيا والجنة في الآخرة •

أيها الاخوان المسلمون •• أيها الناس أجمعون :
لسنا حزبا سياسيا ، وإن كانت السياسة على قواعد الاسلام
من صميم فكرتنا ••
ولسنا جمعية خيرية اصلاحية ، وإن كان عمل الخير والاصلاح
من مقاصدنا ••

ولسنا فرقا رياضية ، وإن كانت الرياضة البدنية والروحية
من أهم وسائلنا •••
ولكننا - أيها الناس - فكرة وعقيدة ونظام ومنهاج ، لا يحدده
موضع ولا يقيده جنس ولا يقف دونه حاجز جغرافي ولا ينتهي بأمر
حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، ذلك لأنه نظام رب العالمين ومنهاج
رسوله الأمين « (٤) » •

* * *

(٤) من رسالة « تحت راية القرآن » ، وتعد رسالة « التعاليم »
للامام - رحمه الله - منهج تربية متكامل جمع بين التوجيه الروحي
والعقلي والجسدى •• وارتقى بالفرد الى مرحلة الجهاد ، وهى التى
أسماها رسول الله ﷺ ذروة سنام الاسلام ، وقد طبقها حوالى عشر
سنوات ، فتم له تربية حول عشرة آلاف على منهج الاسلام •